ثلاثية النسب والحسب والعصبية وعلاقتها بالرياسة والملك عند عبد الرحمن بن خلدون

أ.شواكري منير[1]

مقدمة:

لا يمكن البحث في موضوع الرياسة والملك لأي مجتمعٍ كان دون الرجوع إلى بداية هذا المجتمع محلّ الدراسة، ذلك أن عبد الرحمن بن خلدون وهو المفكّر والمؤرّخ الذي عاش في القرن الثامن هجري الرابع عشر ميلادي، وفي خضمّ دراسته للمجتمع البشري في كتابه المقدّمة، بيّن هذا المبدأ حين نبّه إلى تناسي عهد الدولة منذ بدايتها بفعل أن المتأخرين قد طال أمدهم في الحضارة جيلا بعد جيل، وأدركوا أصحاب الدولة وقد استحكم لهم الأمر فاستغنوا عن العصبية[1].

إنّ الاجتماع الإنساني لا يصلح إلاّ بوجود نظام يردع المتطاولين ويحفظ الحقوق، حيث إن «...من أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض، فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه إلاّ أن يصدّه وازع»[2]، ولكي تستقيم حياة البشر يتوجّب عليهم الاحتكام إلى سلطة يخضع لها الكل، تحفظ للمجتمع تماسكه وتعمل على تقوية التعاون بين أفراده، وكبح عدوان بعضهم على بعض سواء كأفراد أو جماعات[3]،وهذا ما عرّفه عبد الرحمن بن خلدون بالوازع.

هذه السلطة التي يحتكم لها الجميع تتطور وفق نحلة المعاش(بدوي أو حضري)، وتبعا لذلك يتحدّد لنا نوع المجتمع، من مجتمع بدويٍّ يُبنى أساسا على القبيلة كوحدة

[1]– طالب دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان.

مركزية تحفظ للتجمع البشري استمراريته، وهي بدورها_ أي القبيلة_ تعتمد على رابطة العصبية ومن خلال قوّتها أو ضعفها تُحدّد القبيلة موقعا لها في هذا التجمّع الذي هو لبنة العمران البدوي، يمكن لهذا المجتمع أن يعرف الملك والدولة حتى وهو في طور البداوة ، إذا ما توافرت له مجموعة من الشروط أهمها عصبيّة قويّة غالبة لغيرها من العصبيات، ودولة في طور الهرم لا يرجى بُرؤُها .

وإذا ما توافرت هذه الشروط حسب عبد الرحمن بن خلدون وتأسست الدولة الجديدة، فإنّ هذا المجتمع سوف يرقى للحضارة أو ما يصطلح عليه بالعمران الحضري وكل هذا وذاك يحدث في المجتمع بمقتضى طبعه.

وبالتالي الإشكالية المطروحة حول هذا الموضوع تتلخص حول العلاقة المفترضة بين العصبية القبلية والحاكم من جهة، وبين الملك والدولة من جهة أخرى؟ ما هي عوامل التي ترفع من عصبية قبلية فتجعلها غالبة على غيرها من العصبيات؟ وما هي الخصال التي ترقى بفرد من هذه العصبيّة إلى مرتبة الملك؟ وهل تستمر هذه العوامل والمؤهّلات على وتيرة واحدة أم تتعرض للتغيير؟

من المعلوم أن طرق العيش والكسب تختلف من البادية إلى المدينة، وبالتالي فالوازع نفسه يختلف باختلاف العدوان (داخلي وخارجي)، حيث يقول عبد الرحمن بن خلدون:« فأما المدن والأمصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة- **وازع داخلي**- فإنهم مكبوحين بِحَكَمةِ القهر والسلطان عن التظالم، .... وأما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الأسوار....، أو يدفعه ذيادُ الحامية من أعوان الدولة(ومنهم العصبية خاصة في الطور الأول للدولة) – **وازع خارجي**- وأمّا أحياء البدو فيزع

بعضهم عن بعض، مشايخهم وكبراؤهم- **وازع داخلي**- وأما حللهم فإنما يذود عنها من خارج الحامية الحيّ من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم- **خارجي**- ولا يصف دفاعهم — هنا الشاهد على أن العصبية خاصة بالبادية وهي من الوازع الخارجي- وذِيادُهم إلاّ إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد، لأنهم بذلك تشتدّ شوكتهم ويخشى جانبهم»[4]. وعليه يفسّر الجابري الوازع عند ابن خلدون بأنه بدوي وحضري حسب نحل المعاش والرزق، كما أنه داخلي وخارجي حسب طبيعة العدوان[5].

توصّل ابن خلدون إلى نظريته من خلال مجتمعه الذي عاش فيه، والذي بدوره كان قبليا صرفا بحيث شكلت القبيلة الوحدة الاجتماعية الأساسية التي يقوم عليها المجتمع، وبالتالي فالأسرة الحاكمة تكون ذات طابع قبلي، ومن ثمّ فالوازع الذي تستند عليه هذه الأسرة يستند بدوره على قوة تُعِينه لاستيلائه على السلطة والحفاظ عليها ولا يمكن أن تكون هذه القوّة إلاّ العصبية القبلية. ومن ثم نستنتج أن قوام القبيلة في الوسيط الإسلامي هي العصبية، وهي من الوازع الخارجي للقبيلة والتي بدونها تسقط القبيلة وتضمحلّ، مع أنّها لا يمكن أن تستغني عن الحاكم والذي هو من الوازع الداخلي، ويتحكّم في هذا وذاك النسب والخلال الحميدة أو ما يعرف بالشرف.

آن لنا الآن أن نتساءل عن الرابطة التي تجمع بين مكوّنات الوازع إن صحّ التعبير، بحيث باجتماعها تتحقّق الرياّسة والملك؟.

1- أساس العصبية القبلية وقوامها:

أ- العصبية وعلاقتها بالنسب :

لقد عرّف عبد ابن خلدون العصبية بقوله « النُعْرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكةٌ ....،ومن هذا الباب الوَلاَءُ والحِلْفُ، إذْ نُعْرة كلِّ أحد على أهل ولائه وحلفه.. » [6] ويؤكد بعضهم أن جميع الشراح يتفقون على أن العصبية تعني "التماسك الاجتماعي" أو"روح التضامن"[7]. ثم يبيّن عبد الرحمن بن خلدون أن العصبية تنتج عن الالتحام بين مجموعة من الأفراد بعامل النسب أو ما يحلّ محلّه[8]، وبالتالي التلاحم بالنسب أمر طبيعي في البشر ملازم للاجتماع البشري فهو أحد العوارض الذاتية لهذا الاجتماع[9].

هذه النعرة والتناصر تكونان أقوى بين أفراد النسب الواحد القريب، لكنها لا تنعدم في النسب البعيد أو غيره من وجوه الانتساب، كالولاء والحلف غير أنها تنقص حدّتها «والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام، إلاّ أنها في النسب الخاص أشدّ لقرب اللحمة»[10].

ب- مفهوم النسب الخاص والنسب العام:

لكن عبد الرحمن بن خلدون يريد أن يوسّع نظريته في هذا المجال، لأن النسب الخاص أو ما يسمّيه بصريح النسب« إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم»[11]، وهو يبين أن هذا الأخير ليس ضروري كأساس للعصبية فيقول:« وإذا بعُدَ النّسب بعض الشيء فربما تونسي بعضها ويبقى منها شُهْرة فَتَحْمل على النصرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه،....، ومن هذا الباب الولاء والحلف، إذ نعرة كل أحد على

أهل ولائه وحلفه للأنفة التي تلحق النّفس من اهتضام (ظلم) جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب »[12].

وبالتالي فالنسب بشقيه القريب والبعيد ضروري في العصبية فهو موجب للالتحام الذي هو فائدته، حيث إن «النسب أمر وهميّ[13] لا حقيقة له ونفعه إنما هو في هذه الصلة والالتحام»[14]. وعليه يعتمد في القبيلة على ثمرة النسب لا النسب بحدّ ذاته, ومن ذلك يدخل الحلف والولاء، والفرار والاحتماء وحتى أنّه يمكن أن يلتحق بها المصطنعين والعبيد[15]. وقد اعتبر الجابري أن الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه العصبية هو شيء آخر أوسع من النسب حقيقيا كان أو وهميا، إنه **المصلحة المشتركة الدائمة للجماعة**[16]، وبالتالي فأساس العصبية هو النسب (حقيقي كان أو وهمي) ومحرّك كل هذا هو المصلحة المشتركة التي تدعو إلى التلاحم والتناصر.

ج- علاقة الدّين او الدعوة الدينية بالعصبية:

ومن أهمّ المصالح التي يمكنها أن توحّد العصبّية داخليا وخارجيا مع غيرها من العصبيّات وهي الدّين أو الدعوة الدينيّة، فقد وجد في تاريخ البشرية مجتمعات لم تكن عصبيّاتها هي الغالبة إلاّ أنها تمكنت من تأسيس الملك والدول، حيث يقول عبد الرحمن بن خلدون: « الدّعوة الدّينية تزيد الدّولة في أصلها قوّة على قوّة العصبية التي كانت لها من عددها»[17]، لأن الدّعوة الدينية تضاعف قوّة العصبية حتى وإن قلّ عدد أفرادها لأنهم سوف لا يضيعون فالغاية واحدة، وهي نصرة الدعوة « فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم –أي تحدّد مرادهم- لم يقف لهم شيء، لأنّ الوجهة واحدة والمطلوب متساوٍ

عندهم، وهم مستميتون عليه»[18] ، غير أن هذه الدعوة لا تستقيم بدون عصبيّة تحتضنها وتحميها ذلك أنّ « الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتمُّ»[19]، ومردّ ذلك إلى استحالة نجاح الدّعوة الدّينية التي يُدعى لها الناس دون عصبيّة تحميها حيث يقول عبد الرحمن بن خلدون: « وفي الحديث الصحيح كما مرّ (ما بعث الله نبيّا إلاّ في مَنَعَةٍ من قَوْمِه) وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى النّاس بِخَرْقِ العَوَائِد، فما ظنُّك بغيرهم ألاّ تُخرقَ له العادة في الغَلَبِ بغير العصبية»[20].

2-: شروط الزعامة في المجتمع البدوي

أ- النسب والحسب من ضروريات الملك:

هنالك أمر آخر ضروري في القبيلة غير العصبية التي تجمع أفرادها من أجل تحقيق المصلحة المشتركة، ألا وهي الزعامة أو الرياسة، بحيث لا يمكن لأي اجتماع إنساني قلّ عدد أفراده أو كثر أن يبقى دون رئيس، فقد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنه أمر أصحابه بأن يأّمّروا على أنفسهم أحدهم حين سفرهم كي لا يختلفوا[21]، كذلك قال صلى الله عليه وسلّم(من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)[22]، ومن ثمّ أصبح من الضروري أن يتزعّم أحد القوم على قومه، وليكن من أشرف العائلات حسبا ونسبا وهو أمر جُبلت عليه النفوس، فلا يعقل أن يكون سيّد القوم أوضعهم، كما قال صلى الله عليه وسلّم(أنزلوا الناس منازلهم)[23]. ونفس الأمر ينطبق على المجتمع الذي يتكوّن من مجموعة عصبيّات، (فلا بدّ في الريّاسة على القوم أن تكون من عصبيّة غالبة لعصبيّاتهم واحدة واحدة)[24]، وعليه فالرئيس يكون رئيسا في عصبيته الغالبة على

العصبيات الأخرى، سواء كانت هذه الرئاسة متناقلة من منبت واحد أو طارئة، كما يشترط أن يكون أشرفهم حسباً.

والحسب أو كما يُطلق عليه (بيتاً): (أن يَعُدَّ الرَّجُل في آبائه أشرافا مذكورين، تكون له بولادتهم إيّاه والانتساب إليهم تجلّةٌ في أهل جِلدتِه، لِمَا وقر في نفوسهم من تجلّة سلفه وشرفهم بخلالهم)[25]، سبق لنا الحديث عن النسب ودوره في العصبية ، وخلصنا أن عبد الرحمن بن خلدون لا يرى أهمية النسب بذاته، بل ينظر إليه من حيث إنه الوسيلة المفضية إلى تحقيق المصلحة المشتركة الدائمة للجماعة، وبالتالي فالنسب حقيقيا كان أو وهميا، ما دام يحقق هذه المصلحة فهو مفيد للعصبية، بل هي تسعى إليه[26].

إلاّ أنّ الحسب هو أمر آخر يتعلّق أساسا بالحاكم رئيسا كان أو ملكا(الملك وما في معناه)، حيث كنّا وضّحنا أن «الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية»[27]، وأن الالتحام يكون من النسب العام والخاص إلاّ أنه في النسب الخاص يكون أشد لحمة، وأنّ الرياسة لا تكون إلاّ من العصبية المتغلبة على جميع العصبيات، وعليه فَحَسَبُ ذلك الرئيس يجب أن يكون **من أشرف الأنساب**، لتبقى الرّياسة في ذلك النّصاب وتتنقّل فيه، وعليه فإن للحسب دوراً مهماً خاصة لرئيس العصبية، «فالرياسة لابد وأن تكون موروثة عن مستحقّيها لما قلناه من التغلّب بالعصبية»[28] أي أنها– أي الرّياسة– لا تكون في غير نسب العصبية، ويضرب لنا عبد الرحمن بن خلدون أمثلة عن الغلط الذي يقع فيه كثيرٌ من رؤساء القبائل والعصائب يسعون إلى أنساب ينتسبون إليها، إمّا لخصوصية كانت في ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو شرف، ومن ذلك ما يدّعيه زناتة جملة أنهم من العرب، وإدّعاء بني زيّان خاصة من أنهم من ولد القاسم بن

إدريس[29] (أو القاسم بن محمد ين إدريس)وغير ذلك كثير، وهم كما قال عبد الرحمن بن خلدون غير محتاجين لذلك، فإنّ منالهم للملك كان بسبب عصبيتهم لا أصالة شرفهم[30].

ب- إشكالية النسب الشريف وعلاقته بالرياسة والملك:

هنا حريٌّ بنا شرح معنى اشتراط النسب والحسب والخلال الحميدة في الحاكم. يقول الجابري عمّن تولى الرياسة في المجتمع القبلي يتوجب عليه أن يحمل ثلاث صفات أو مؤهلات[31] وفق المفهوم الخلدوني أولها:

النسب الصريح: حيث إن العصبية وإن أمكنها أن تضم إليها أفرادا بعيدين عنها دما (الحلف والولاء والجوار)، إلاّ أنهم في المرتبة الثانية. لكن الجابري يبيّن أن هذا الشرط ليس مطلقا عند عبد الرحمن بن خلدون، فصراحة النسب لا تعني بالضرورة نقاوة الدم إنما تعني أن الشخص المرشح للرياسة قديم الانتماء للعصبية، ذو مركز فيها وبالتالي فالمقياس عنده " طول المعاشرة "لا " صراحة النسب".

هنا تستوقفنا إشكالية تتعلّق بقول الجابري في مسألة النسب ومدى اشتراط صحته من عدمها، فهو لا يرى ضرورة في النسب الصريح فالمغزى هو قدم الانتماء إلى العصبية أو ما أطلق عليه طول المعاشرة، لكننا نجد في مكان آخر اشتراط النسب الصريح في الرئيس مثل قول عبد الرحمن بن خلدون: «والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب، إنّما هو ملصق لزيق، وغاية التعصّب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب له غالبا عليهم البتّة»[32]، كذلك قوله حول المصطنعين حيث ينتظمون في العصبية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم ﴿ مولى القوم منهم﴾[33] سواء كان مولى رقّ أو

اصطناع وحلف « فإذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم شرفا وبيت على نسبته في ولائهم واصطناعهم لا يتجاوزه إلى شرفهم، بل يكون أَدْوَنَ- أي أقلّ- منهم على كل حال»[34].

من كل هذا يمكن، وجمعا لما سبق، أن نخلص إلى أن عبد الرحمن بن خلدون يشترط النسب الصريح في الرئيس، إلاّ أن هذا لا يعني اتصاله بحسب شريف من العرب كنسب الرسول صلى الله عليه وسلم أو آل بيته أو حتى القبائل العربية المشهورة، كما توهّم كثيرٌ منهم وأصبحوا يُسْقِطون أنفسهم في هذا الإحراج، بل يكفي أن يكون من بيت شريف في الحسب والخلال الحميدة، أي« أن يُعَدَّ الرجل في آبائه أشرافا مذكورين، تكون له بولادتهم إيّاه والانتساب إليهم تجلة في أهل جلدته، لما وقر في نفوسهم من تجلّة سلفه وشرفهم بِخِلالهم »[35].

لذلك الصفة الثانية اللازمة حسب الجابري هي الشرف والحسب والمجد التي تطلبها الرياسة، لأنه لا معقول أن ينتسب الرئيس إلى بيت شريف في الحسب ثم لا يستفيد هو منه، حيث إن «من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة»[36]، وبالتالي فالنسب حتى ولو كان صريحا لا يكفي وحده كمؤهّل للرياسة، بل لا بد من الحسب والشرف، وباجتماع النسب والحسب بما فُسّر آنفا يتحقق للرئيس شروط الرياسة، لكن دون أن ننسى شرطاً أساسياً ألا وهو عصبية قويّة، «فحيث تكون العصبية مرهوبة ومخشيّة، والمنبت فيها زكيّ محميّ، تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى ،وتعديد الأشراف من الآباء زائد في فائدتها،....»[37]، إذن دون عصبية قويّة لا معنى للحسب أو

النسب أو حتى الخلال الحميدة، سواء في الرئيس وحتى في العصبية، لأن الهدف كله هو قيام الدولة.

وبالتالي نحن أمام الشرط الثالث عند الجابري ألا وهو الغَلَب، وهو أمر مصيري للعصبية فلا نفع لها دون أن يكون لها الغلبة، فلا تنفع الرياسة الخاصة دون الرياسة العامة التي تكون بالغلب« لا بد في الرياسة على القوم أن تكون في عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة»[38].

هناك رابطة قوّة وتوافق داخل القبيلة بين النسب– نقصد ثمرة النسب أي المصلحة المشتركة – والعصبية والحاكم فمن خلالهم تتمكن من الصمود والمواصلة، لكن هذه الرابطة لا تستمرّ على وتيرة واحدة وذلك من« طبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ..... »[39]، حيث أن الخير والشرّ في تجاذب دائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وعليه مادام الاشتراك في المجد باقيا «بين العصابة وكان سعيهم له واحدا، كانت همُمهم في التغلّب على الغير والذّبِّ عن الحوزة أُسوة في طموحها وقوّة شكائمها، ومرماهم إلى العزّ جميعا، وهم يستطيبون الموت في بناء مجدهم، ويُؤثرون الهلكة على فساده، وإذا انفرد الواحدُ منهم بالمجد قرع عصبيّتهم وكَبَح من أعنَّتهم، واستأثر بالأموال دونهم، فتكاسلوا عن الغزو، وفَشِل ريحهم ورئموا المذلّة والاستعباد، ثم ربي الجيل الثّاني منهم على ذلك، يحسبون ما نالهم من العطاء أجراً من السّلطان لهم على الحماية والمعونة، لا يجري في عقولهم سواه، وقلَّ أن يستأجر أحدٌ نفسه على الموت، فيصير ذلك وهناً في الدولة ، وخضْداً من الشوكة، وتُقْبِلُ به على مناحي الضَّعفِ والهرَمِ لفساد العصبيّة بذهاب البأس في أهلها »[40].

3- مستويات تطور الدولة وفق النظرية الخلدونية:

يتعيّن علينا بعد ما سبق توضيح التطور الحاصل في أركان الملك (السلطان، العصبية ، الرعيّة)[41]، والذي من خلاله تتحدّد معالم الدولة من حيث القوّة أو الضعف, وهذا التطور هو انتقال الرياسة والملك من فرع إلى آخر داخل العصبية الغالبة، وهذا التطور يعرف بالدورة العصبية وهو مرتبط بعنصر الوقت (الزمان).

لاحظ الجابري أن عبد الرحمن بن خلدون درس هذا التطور على ثلاثة مستويات تسير على وتيرة واحدة، المستوى الأول متعلّق بالتطوّر الحاصل في حسب الحاكم من تأسيس الدولة إلى سقوطها وميّز فيه خمسة أطوار، أما المستوى الثاني درس فيه تطور الدولة من جانب أنها جماعة تحكم وذلك بدراسة حالة عصبيتها، أي انتقالها من حالة القوّة إلى حالة الضعف من الالتحام إلى الانحلال، وحدّد فيه ثلاثة أجيال، أما المستوى الثالث فيحاول عبد ابن خلدون أن يبيّن فيه النتائج المترتبة على الدولة ككلّ في كل مرحلة من المراحل التي تمرّ بها في المستوين الأولين.

أ- المستوى الأول :التطور الحاصل في حسب الحاكم

لا تكون الرياسة حسب عبد الرحمن بن خلدون إلاّ بالغَلَب الذي من ورائه عصبيّة، إلاّ أنها أي الرياسة تكون أقلّ درجة من الملك، لأن الملك هو التغلّب والحكم بالقهر، بينما الريّاسة هي سؤدد وصاحبها متبوع، وليس له عليهم القهر في أحكامه[42]، فحاكم الدولة في مرحلتها الأولى يكون إلى مرتبة الرئيس أقرب إليه من مرتبة الملك، وهذا ما يستوجب منه أن يكون أسوة في قومه بخصال الحاكم العادل، لكن دون أن ينفرد بشيء عنهم، لأن العصبية التي أوصلته إلى الحكم تكون قوية، كذلك لأنه «يتم أمره

بقومه فهم عصابته وظهراؤه على شأنه وبهم يقارع الخوارج على دولته، ومنهم من يقلّد أعمال ملكته ووزارة دولته، وجباية أمواله، لأنهم أّعوانه على الغلب وشركاؤه في الأمر، ومساهموه في سائر مهمّاته»[43].في هذا الطور يكون لِحَسَب الرئيس على العصبية دور كبير في زعامته عليهم، لما يحتويه من «الخلال التي منها التواضع لهم – أي أهل عصبيته– والأخذ بمجامع قلوبهم»[44]، فتظهر صفة المساهمة والمشاركة بين الطرفين ويكون الحكم مشتركا بين الطرفين[45].

ثم لا يلبث الأمر أن يتبدّل فَيَمِيلُ الحاكم إلى الاستبداد على قومه[46] والإِنفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة[47]، ولا يكون له ذلك إلاّ بآليات منها أن يعتني « باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك لجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضاربين في الملك بمثل سهمه»[48] ،فيصير قومه من أعدائه لما أظهر لهم من جفاء وإقصاء، كيف لا وهو الذي استخلص غيرهم لنفسه وقلّدهم جليل الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية[49]، وهنا تأتي المرحلة الثالثة التي تزيد في الهوّة بين الحاكم وعصبيّته لكن دون أن يُشْعر بذلك، فقد آن الأوان لتحصيل ثمرات الملك من جمع المال وتخليد الآثار[50]، فيستعمل لأجل ذلك قوّته وسلطانه في تحصيل الجباية وتنظيم بيت المال، ويظهر كل ذلك في مراسيم الدولة وأعيادها وسلمها وحربها، تكون هذه المرحلة ذروة الدولة من حيث القوّة والتوسّع.

ثم تأتي المرحلة التي سمّاها عبد الرحمن بن خلدون بطورُ القنوع والمسالمة[51]، ويمكن أن نطلق عليها نحن مرحلة الاستقرار, وهي المرحلة التي يتوقّف فيها التطور ويكثر فيها التفاخر بالأسلاف وإنجازاتهم[52]، وهذا يفضي إلى المرحلة الأخيرة وهي حتمية الوقوع

وفيها يكون صاحب الدولة «مخرّبا لما كان سلفه يؤسّسون، وهادما لما كانوا يبنون»[53] ، فتقع الدولة في الهرم ما لم يجد لها صاحب الدولة دواء لدائها وذلك باختياره لأنصار له وشيعة من غير قبيله، ممن تعوّد الخشونة فيتّخذهم جندا له مستغنيا عن أهل الدولة المترفين[54].

ب- المستوى الثاني :التطور الحاصل في العصبية

التطور الحاصل في صاحب الدولة لا يكون في معزل عن عصبيّته، بل يؤثّر فيها إيجابا وسلبا وهذا ما بيّنه عبد الرحمن بن خلدون ابن خلدون في «أنّ الدولة لها أعمار طبيعيّة كما للأشخاص»[55] ، حيث بيّن الأجيال الثلاثة التي تمرّ بها الدولة فيكون الجيل الأوّل لا يزال على خُلُق البداوة وخشونتها وتوحّشها ويتمثّل ذلك في شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فكل هذا يحفظ من سَوْرة العصبيّة ويجعلها مرهوبة والناس لها مغلوبون[56]، أمّا الجيل الثاني فيمثّل مرحلة التحوّل في العصبيّة نتيجة مخالطتها للملك ومزاياه، فتعرف الحضارة وتستطيب ترفها وخصوبة الحياة في خضمّها، فيتفرّد رئيس العصبية بالمجد ويتكاسل عنه البقيّة مكتفون بما حقّقوه, فتضعف قوّة العصبية بعض الشيء دون الخضوع المطلق لما ذاقوه من عزّ ومجد[57]، ثم يأتي الجيل الثالث الذين يتنصّلون لما عرفه سابقوهم من البداوة والخشونة، بفعل النعيم والترف فتنكسر عصبيّتهم ويصيبها الوهن، وقد يكون لصاحب الدولة نصيب فيه لما سلّطه عليهم من القهر والتهميش ثم لا يفتأ أن يحاول جبر ذلك الشرخ باستظهاره بمن سواهم، ممن لا يزالون محافظين على أسباب العزّ والنصر (البداوة وخشونتها)، فيعتبر هذا دواء للدولة بعض الوقت حتى يتأذّن الله بانقراضها[58].

ج- المستوى الثالث: نتائج العلاقة بين العصبية والحاكم وأثر ذلك على الدولة والرعية

لا بدّ أن هذا التطوّر الحاصل في حسب الحاكم وعصبيّته والذي أعطينا نبذة مختصرة عنه في المستويين الأوليين، أن ينتج عنه تفاعل يفضي إلى نتائج تعود على الدولة، سلطة ورعيّة، حيث تتميّز المرحلة الأولى بسيطرة المصلحة العامة على الخاصة عند الحاكم وعصبيّته، فهي علاقة مساهمة ومشاركة في الثروة[59]، ففي هذا المستوى يكون فيه ارتباط وثيق بين الرئيس وأهل عصبيته المتغلّبة في تسير الحكم وتقاسم الرَيْع، وهذه المصلحة المشتركة هي التي تُقَوّي شَكِيمة العصبية وتقوي سلطان رئيسها، وبالتالي تكون الدولة الناتجة عنها قويّة ومرهوبة، مسيطرة على جميع المناطق التي تبسط نفوذها عليها[60].

كما تتعامل العصبية الحاكمة مع غيرها من العصبيات التابعة أو المغلوبة بكثير من التسامح، حيث قال عبد الرحمن بن خلدون: ،«فإذا نظرنا في أهل العصبية ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والأمم، فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله»[61]، ومن بين هذه الخلال، «إكرام العلماء والصالحين والأشراف وأهل الأحساب وأصناف التجار والغرباء وإنزال الناس منازلهم»[62]، ثم يوضّح سبب ذلك قائلا:« لأن إكرام أقتاله وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه، وإكرام الطارئين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة... »[63]. ومردّ ذلك راجع إلى الخلال الحميدة التي تتصف بها العصبية الحاكمة ورئيسها، والتي تدفعهم للإحسان إلى الغير والعطف عليهم[64]، كذلك السعي إلى توضيح أحقيتهم في الملك بعد أن تحصّلوا عليه، أي بمعنى ما هو الجديد الذي أدخلوه على هذه العصبيات المغلوبة أو المسْتَتْبَعة، بعد أن كانوا

خاضعين إلى دولة كانت تعيش مرحلتها الأخيرة من الهرم والانحلال وبالتالي الإقصاء والتهميش.

كل ما ذُكِر سابقا يعطينا فكرة عن السياسة المالية المتّبعة من قبل الدولة في مرحلتها الأولى، فهي في الغالب سياسة تسامح وإكرام وتجافٍ عن الأموال وخفضٍ للجناح، وهذا مهما يكن الأساس الذي تقوم عليه الدولة(ديني أو عصبي) حيث قال عبد الرحمن بن خلدون:« أنّ الدولة إذا كانت على سنن الدّين فليست تقتضي إلاّ المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية، وهي قليلة الوزائع، لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت، وكذا زكاة الحبوب والماشية، وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشّرعيّة، وهي حدود لا تُتَعَدَّى، وإن كانت على سنن التغلّب والعصبية فلا بدّ من البداوة في أوّلها كما تقدّم، والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتّجافي عن أموال النّاس....»[65].

بطبيعة الحال هذه العلاقة بين الحاكم وأهل عصبيّته والعصبيات الأخرى وكما أنها تميل إلى الإيجابية في الفترة الأولى لتأسيس الدولة، فلا بدّ وأن تتّبع سنن العمران البشري في المراحل الأخرى فتنتج لنا مرحلة التطوّر والتوسّع، ومرحلة الاضمحلال والسقوط، وكل ذلك يكون بوتيرة معاكسة للمرحلة الأولى ولكن بشكل تدريجي، أساسها تأثير الترف والتقلّب في النعيم، كذلك ظهور المصلحة الخاصة على حساب المصلحة العامة.

الخاتمة :

المجتمع الذي درسه عبد الرحمن بن خلدون هو مجتمع بدوي بالأساس، يعتمد في تكوينه على مجموعة من المقوّمات تميّزه عن مجتمع المدينة، بيد أنه ليس كل اجتماع

يفضي إلى الملك بل يجب أن تتحقّق فيه شروط هي من طبيعة العمران البشري، كالعصبيّة القويّة المتغلّبة على غيرها من العصبيّات، مع أن يوافق هذا التغلّب دولة ضعيفة متهاوية، كذلك رئيس طموح قادر على قيادة قبيله للنصر والظهور، يكتسب من الخلال ما تخوّله ذاك المنصب، فإذا اجتمعت مثل هذه الصفات في مجتمع قبلي فلا محالة سوف يسعى إلى الملك دافعه إلى ذلك الصراع من أجل البقاء (الصراع على المعاش)، قد يتحقّق الاجتماع وتجتمع الأهواء بدين أو دعوة دينيّة تحقّق لمجتمع بشري ما عجزت أن تحقّقه العصبيّة. غير أن عبد الرحمن بن خلدون أكّد على سنيّة التطور في المجتمع البشري حيث قال: «إن أحوال العالم والأمم وعَوائِدِهم و نِحَلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر, إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال, وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الأفاق والأقطار والأزمنة والدول»[66]، وكل هذا يحدث في العمران بمقتضى طبعه، إذن حتى الأسس التي ترتكز عليها القبيلة من عصبيّة وحاكم وحسب وخلال يطرأ عليها التغيّر والتبدّل، وتتغيّر العلاقة الرابطة بينهم وفقا لذلك, وهذا ما يحدّد لنا طبيعة الدولة في كل مرحلة من مراحل هذا التطوّر.

الهوامش:

1- ابن خلدون عبد الرحمن (ت808 هـ-1406م): مقدمة ابن خلدون، اعتنى به: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، سوريا،ط1 ، 1433هـ - 2012م، ص163-164

2- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه،ص.136

3- عابد الجابري محمد: فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في الفكر الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية،ط6 1414هـ-1994م،ص.163-164

4- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق،ص.137

5- الجابري: المرجع السابق،ص.165

6- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ،ص.138

7- مغربي عبد الغني: الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة محمد الشريف بن دالي حسين، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر1408هـ-1988م، ص.144

8- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ،ص.138

9- محمد عابد الجابري: المرجع السابق ،ص.171

10- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص: 140

11- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص139

12- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص.138

13- النسب الصريح لا يوجد إلى في القفر، حيث إن أهل المدن اختلط بعضهم ببعض (فكثر الاختلاط وتداخلت الأنساب)، ثم إن هذا الاختلاط وقع في المدن مع العجم وغيرهم، "وفسدت الأنساب بالجملة وفُقِدت ثمرتها من العصبية فاطُّرِحت"، عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص.139

14- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص.139

15- هناك نوعان من المصطنعين ،قبل الملك ويتنزّلون- من أصحاب العصبية- منزلة ذوي قرابتهم وأهل أرحامهم، وإذا اصطنعوا بعد الملك كانت مرتبة الملك مميّزة للسيّد عن المولى، دراجي بوزيان :العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية(على ضوء الفكر الخلدوني)، دار الكتاب العربي 1423هـ-2003م،ص.253

16- محمد عابد الجابري: المرجع السابق ،ص.172

17- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص.167

18- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص.167

وهنا تصل العصبية إلى قاعدة الالتحام الأقصى بفعل عامل مؤثّر وهو الدعوة الدينية. محمد مراد: المدارس التاريخية الكبرى(دراسة نظرية في مناهج البحث وفلسفة التاريخ)، مكتبة الفقيه، لبنان،ط1 ، 1416هـ-1996م، ص.152

19- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص:168

20- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص.167

21- عن أبي سعيد الخدري مرفوعا: (إذا خرج ثلاثة في سفرٍ فليؤمّروا أحدهم)، محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، اعتنى به أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنّشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الاولى،1428هـ-2004م ، ص.308

22- مسلم ك 33 الإمارة ب13 وجوب ملازمة الجماعة، ج: 1478/1851:3/58 منقول من كتاب احمد محمود آل محمود: البيعة في الإسلام تاريخها وأقسامها بين النظرية والتطبيق، دار الرازي، كلية الآداب، جامعة البحرين ص.8

23- الحديث رواه أبو داود ، غير انه قال ميمون لم يدرك عائشة، كما ذكر الحديث مسلم تعليقا بلفظ (ذُكِرَ عن عائشة رضي الله عنها)، وصحّحه الحاكم، كما ضعّفه الألباني لعلل أخرى غير عدم إدراك ميمون لعائشة. ينظر يحي بن شرف النووي الدمشقي أبو زكريا: رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين، ت محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي1399هـ-1979م

24- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ،ص.141

25- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص 143

26- إذ أن أهل العصبية يتقوّون بمن هو من غير نسبهم على سبيل الحلف والمظاهرة وغيرها وذلك تحقيقا لمصلحة العصبية.

27- عبد الرحمن بن خلدون ابن خلدون: المصدر السابق ،ص.140

28- عبد الرحمن بن خلدون ابن خلدون: المصدر السابق ،ص.141

29- وإدريس هو مؤسس الدولة الإدريسية العلوية بالمغرب الأقصى.

30- عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق ،ص.142

31- الجابري: المرجع السابق،ص.180-181

32- عبد الرحمن بن خلدون :المصدر السابق،ص.141

33- الخطيب التبريزي: مشكاة المصابيح، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية1399هـ-1979م بيروت، رقم الحديث: 1829،ص573

34- عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ص.145

35- عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ص.143

36- عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ص.151

37- عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ص.151

38- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ،ص.141، فليرجع حول كل هذا إلى الجابري: المرجع السابق،ص.180-182

39- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص.17

40- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص.177

41- هو تطور الأساس الذي قامت عليه الدولة أي العصبية والحسب، محمد عابد الجابري: المرجع السابق ،ص.220

42- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص141 و148

43- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص.192

44- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص.146

45- الحصري ساطع: دراسات عن مقدمة ابن خلدون، مكتبة الخانجي، دار الكتاب العربي،ط3. 1386هـ-1967م، ص.367 46- في الطور الأول كان أهل عصبية الحاكم ظهراء له، لكن في هذا الطور يخالفونه ويعارضون أعماله ، ويستمر ذلك حتى يتفرّد عنهم الملك بآليات أخرى. ساطع الحصري، المرجع نفسه،ص.368 ، إن هذا القائد القوي أخذ يعتبر نفسه صاحب الملك في هذه المرحلة، ولم يعد يحتمل المشاركة ، عبد الغني مغربي: المرجع السابق،ص.172

47- الإنفراد بالملك وكبح أهل العصبية عن المساهمة والمشاركة قد يكون في عهد أول ملوك الدولة، وقد لا يتم إلاّ للثاني و الثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوّتها، وهذا ما عرفه عبد الرحمن بن خلدون بالإنفراد بالمجد وجعله من طبيعة الملك، عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق،ص.175

48- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص.184

49- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق،ص.192

50- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ،ص.184-185

51- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص.185

52- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص.176

53- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص.185،

54- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص.178

55- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص.179

56- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص.179

57- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص.179-180

58- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص.179-180

59- عابد الجابري: المرجع السابق،ص.222

60- حيث يكون (المجد مشتركا بين العصابة وكان سعيهم له واحدا، كانت هِمَمُهم في التَّغَلُّب على الغير والذّبِّ عن الحوزة أُسوة في طُمُوحها وقوّة شكائمها، ومرماهم إلى العزّ جميعا، وهم يستطيبون الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فساده)،عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق،ص.177،وهنا تصريح صارخ على مبدأ المساهمة والمشاركة بين العصبية الحاكمة ورئيسها، فلا ينفرد الواحد على الأخر بالمجد، وهذا ما يضاعف قوّة الكل فيضاعف من مطالبتها وغلبتها.

61- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق،ص.152

62- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق،ص.153

63- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص.153

64- عابد الجابري: المرجع السابق، ص.223

65- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ،ص.286،

66- عبد الرحمان بن خلدون: المصدر السابق,ص.38